

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

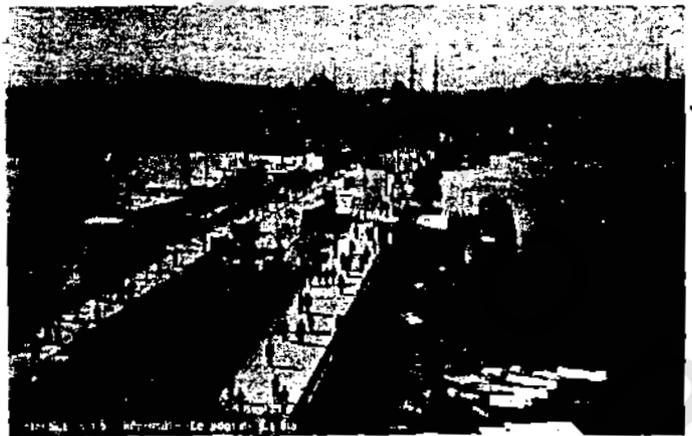
- ٣ -

المتحف العسكري

يا أخي صاحب الرسالة

سلام عليك . لا أقول هذه نالمة الرسائل خيفة أن تقول في نفسك « نالمة الأثافي » بل أقول هذه الرسالة الثالثة أرسلها إليك من استنبول لأصف لك مما رأيت

خرجت من مكنتي في تقسيم أوام المتحف العسكري ومي زميلي الدكتور زيادة ، فلما أجزنا الجسر - جسر غلطة (١) شرعت السماء تزدنا ، حتى إذا بلغنا ساحة أياصوفيا وملنا شطر قصر « طوب قيو » أنهر المطر فأوينا إلى الباب ، وهو باب شاهق واسع عليه الطغراء السلطانية ، يمتد على جانبه سور عال كأسوار القلاع ، أوينا إليه مع من أجام المطر ؛ وازداد المطر أنهاراً فطال بنا الوقوف . ولست أنسى مشهداً رائعاً شهدته هنالك : إلى اليسار سبيل السلطان احمد في جمال مهندسته ورحمن نقشه ، وحكى من الخط والمعنى تتجلى بها أبيات من الشعر أطاقت به ؛ وإلى اليمين جامع أياصوفيا يبدو جانب من قبته ومأذنتان من

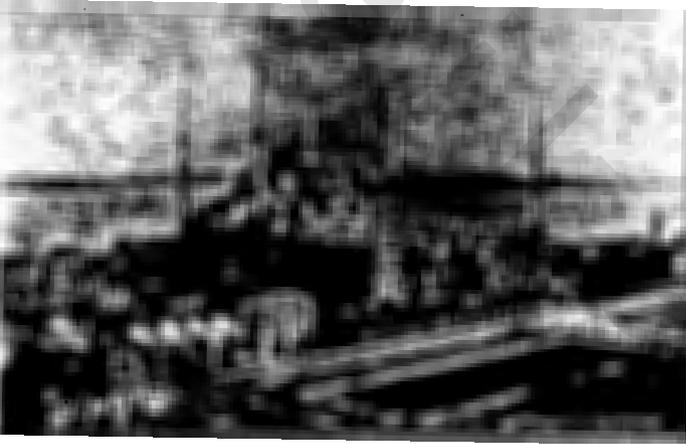


(جسر غلطة)

مآذنه الأربع ؛ وأمامي على بعد جامع السلطان احمد في جلال قبابه .

(١) جسر يصل جانبي المدينة : استنبول وغلطة . وهذه النسبة لجانبى المدينة قديمة وقد ذكرها ابن بطوطة ، والجسر في مدخل خليج القرن الذهبي وهو جسر ضخم عالم ترنمه عاتقات ضخمة بجانبها عاتقات أخرى اتخذت طريقاً ومراسي للبوخر الصنيرة والمطاعم ومجالس المسافرين -

وجمال بنائه ، قد علت قبته ومآذنه الست أهلة ذهبية يزيدها المطر اشتعالاً . وهيات أن تذهب بنور التوحيد سدق الدجن أو شآيب المطر ، وجامع السلطان احمد أجمل جوامع استنبول في رأيي وأكثرها إضاءة في قلب الداخل وعينه . ما يزال الطرف يتقلب بين جدرانها وأساطينها وقبابه حتى إذا بهره الجلال والجلال استراح إلى مرأى البحر من خلال النوافذ الزجاجية الجميلة . وقد دخلته قبل ثمانى سنين ، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع المائلة قلت : « يا لك أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! »



(منظر لجامع السلطان احمد)

خف المطر فأسرعنا صوب المتحف العسكري فإذا هو مقفل إلى الظاهر فأوينا إلى باب « الضريحانة » . ولا أذن المطر بالسير انصرفنا سير في أرجاء المدينة . ثم عدنا إلى المتحف ، وهو في كنيسة قديمة اسمها سنت أدنيا ، رُصت خارجه مدافع كثيرة جاهدت في عصور مختلفة . فيها مدفع كبير بجانبه قذائف مكورة من الحجر وقد نقش عليه بالمرية بيتان يدلان على أنه من مدافع سليمان ، وأنه صنع سنة ٩٢٨ هـ . وهناك مدافع أخرى نقش عليها أسماء صانعيها ؛ وأمام المتحف قبيلة سوداء مخروطة طويلة هي بعض ما ألقاه الأسطول الانكليزي على الجيوش العثمانية حينما سدت طريق الدردنيل بأبدانها وإيمانها

ونفتحنا الباب فإذا دهليز على جانبيه تماثلان لجنديين دارعين من انكشارية القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . ثم سلكنا الدهليز بين بنادق كثيرة من صنع القرن الماضي والقرن الحاضر . ولست أستطيع ولا أستحسن أن أصور لك كل ما رأيت في هذا المرض العظيم من تاريخ الصناعات ومجد الممانيين وعبر التاريخ : أكداس من الوقائع والمبر ، يضيق عنها النظر والفكر ، وإيمان

في نظرات ، وقبض الدهر هذه العصور المتطاوله في كلمة واحدة :
« الماضي » ...

وفي الدهليز الذي إلى اليمين سنان رمح كان للأمبراطور
جستينيان ، وبركار كان للمعمار سنان . قلت لنفسي : شتان ما بين
الستانين هذا للحرب والفتاء ، وهذا للمعمار والبقاء . قد فئت
آثار سنان جستينيان ، وللقناء كان طمانه ، وبقيت آثار بركار سنان ،
وللبقاء كان بنيانه . وحسب سنان خلوا هذا الجامع الرائع
والأثر العظيم الذي يدل على الصانع : جامع السلطان سليمان ،
على أن هذه اليد الماهرة المعمرة شادت في أرجاء الملكة أربعمائة
بناء (عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتوفى سنة ٩٩٦
ودفن في الجامع الذي ينسب إليه في استنبول) وبمد هذين
صورة تمثل الأمير البطل عبد القادر الجزائري وهو يقابل القائد
الفرنسي بعد معاهدة تفنة سنة ١٨٣٨ م

وفي الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رجال الدولة وخدم الملوك
في أزليهم القديمة . فهذا شيخ الإسلام على أريكة قد جلس
أمامه أعوانه ، وهذا قاضي المسكر بجانبه قاضي مكة وآخرون .



(شيخ الاسلام)

وهذا أعناد السعادة ، وهذا قزم كان يضحك السلاطين ،
وهذه صور الانكشارية في أزليهم العجبية ، وهذا الجلاد واقفاً
كالقضاء ينفذ أمر السلطان — صور من التاريخ مبكية مضحكة ،
وفي هذه الطبقة خرائط مجسمة تمثل القسطنطينية وما يحيط بها ،
وألواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة ...

وبعد فحسي اليوم هذه السطور . ولعل الرسالة الآتية
تبلغك عما قليل ، والله يرعاك والسلام عليك

استنبول ٣ أغسطس سنة ١٩٣٧ - عبد الرهاب عزام

أصف لك ماغلب على الداكرة ، من بينها : التحضيرة كنيسة قديمة
تقوم على ساحتها قبة كبيرة عالية ويدور بها طبقتان من الاروقة
سرنا في الرواق إلى اليمين ودربنا معه فاذا بنا دق ومدافع وآلات
حريرية كثيرة وسناظر لبعض الحروب ، حتى انتهينا إلى سيارة
في نوافذها تقوب ؛ فهذه السيارة التي قتل فيها المرحوم محمود



(حلقة موسيقية صوفية)

شوكت باشا وهو صدر أعظم في عهد السلطان محمد الخامس ؛
وبمدها صور وآثار كثيرة لتأخرى القواد العثمانيين : علمدار
مصطفى باشا ومختار الغازي وأتور وغيرهم . ثم خرجنا إلى وسط
الكنيسة فرأينا في صدرها صورة الغازي مصطفى كمال باشا بجانبها
أنواع من الأسلحة القديمة والحديثة . وسرنا قليلاً فاذا درع
قديمة تتخطاها العين غير حافلة ، حتى إذ أوقفها التطلع قرأت عليها :
« درع الفاتح » فأخذها جلال الله كرى وأدركت فرق ما بين
البظاهر والحقائق ، بجانب الدرع سيوف من ذلك العهد وتروس
محكمة الصنع منها ترس محمود باشا أحد الصدور في عهد الفاتح ،
وترس يعقوب جلبي بن السلطان مراد الأول . ويقال إن السلطان
بايزيد أمر بقتله وهو يتمقب المدو في موقعة قوصوه الأولى
سنة ٧٩١ ، ثم سيوف لسليمان القانوني فيها سيف كتب عليه :
على الله في كل الأمور توكلسى وبالجس أصحاب العباء توكلسى
ورأينا بعد هذه خوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم
الثالث ، وعلماً رفعة العثمانيون في موقعة قوصوه الأولى ، ثم مخلفات
السلطان عبد الحميد . وهكذا نظوى العصور في لمحات . فالفاتح
وبايزيد وسليم وعبد الحميد طوأم التاريخ في سجله ، وجمعهم
أثرمان في ممرنه ، فدار بهم الزائر في خطوات ، وحوام بطرف